ظاهرة الحزن في شعر ابن الرومي
قصيدة ذم الزمان نموذجا

د..باقي محمد
جامعة سيدي بلعباس

ثبت القصيدة

ومن يلق ما لقيت في كل مجتنى	من الشوك يزهد في الثمار الأطايب
أذاقتني الأسفار ما كرّه الغنى إليّ	وأغراني برفض المطالب
فأصبحت في الإثراء أزهد زاهد	وإن كنت في الإثراء أرغب راغب
أخاف على نفسي وأرجو مفازها	وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يريني غايتي قبل مذهبي	ومن الغابات بعد المذاهب
ومن نكبة لاقيتها بعد نكبة	رهبت إعتساف الأرض ذات المناكب
وصبري على الافتاء ايسر محملا	عليّ من التغرير بعد التجارب
لقيت من بر التباريح بعدما	لقيت من البحر ابيضاض الذوائب
أبي أن يغيث الأرض حتى إذا ارتمت	برحلي أتاها بالغيوث السواكب
سقى الأرض من أجلي فاضحت مزلة	تمايل صاحبها تمايل شارب

يعد هذا النص الشعري لابن الرومي، نموذجا يصلح لاستخلاص الملامح المميزة للشاعر شكلا، وصياغة، ومضمونا، ومحتوى فكري ووجداني، واذا كانت هذه الملامح سمة مميزة لجميع الشعراء الذين عبروا عن دواخل أنفسهم تعبيرا صادقا، وأصيبوا بنكبات في هذا الوجود الذي أصبح بالنسبة لهم هاجسا يعوق مسيرات حياتهم، ويدفع بهم الى الاغتراب النفسي والقلق الوجودي.

فإنّ ابن الرومي ينفرد دونهم بخاصية هامة تدل على غزارة الينبوع الذي تصدر عنه رؤيته الشعرية، فالتدفق الشعري سمة بارزة في معظم قصائده حتى أن بعضها وصل إلى ما يقارب ثلاث مئة بيت ومن ثم يمكن أن يتحول شاعرنا إلى رمز من رموز الملحمة أو المأساة الدرامية، و هذا نظرا لحدة إحساسه والخوض في أغوار الزوايا المعتمة لتفجير الرؤيا الخفية التي تسكن ذاته القلقة والتي تتأرجح بين اليأس والقلق.

خيبة الأمل

ومن يلق ما لقيت في كل مجتنى	من الشوق يزهد في الثمار الأطايب
أذاقتني الأسفار ما كره الغنى	الي وأغراني برفض المطلب
فأصبحت في الإثراء أزهد زاهد	وإن كنت في الإثراء أرغب راغب [2]

في هذه الأبيات يبدع الشاعر في التعبير عن مأساته التي يعيشها ويعاني منها، فيعبر عنها بصورة واضحة تكشف عن إحساسه بها، فهو أسير التساؤلات الحائرة التي لا يجد لها جوابا، إن المصائب تلاحقه أينما حل فيسائل نفسه عن مدى ما يلاقيه في هذا الوجود من عذاب، وشقاء، ويؤكد أن لا أحد وجد في هذه الحياة من تعاسة وحزن ومكاره، حتى زهد من الحياة ، وهذا ما ولد لديه حالة من الاكتئاب والهواجس، (ولابن الرومي حالات يكون فيها متناغم النفس والجسد، بريء من الهواجس والاستئام، راضا عن القدر، فيعرض له صديقا بإساءة أو عتب مر، أو ما يثير في النفس ويقلق البال، فيقف ابن الرومي من كل ذلك هشوشا بشوشا يمد يده الى قلبه المترع سماحا وعطفا فيستخرج منه درزا طيبا يملأ به الأفق طيفا مستجيبا ذلك هو قلب رجل الفنان المنفتح على أبعاد الوحدة المطلقة))[3] لم يكن ابن الرومي مثل عامة الناس بل كان غريب الأطوار مكفهرا مكتئبا وهذا نظرا للمحن والنكبات التي ألمت به في فترات حياته.

كل ما تعلمه عن نحافته وتقزز حسه وشيخوخته الباكرة وتغير منظره، وإسترساله في الوجوم اختلاج مشيته، وموت أولاده ومليرته ورفقه وشهوانيته الظاهرة في تشبهه وهجائه، وإسرافه في أهوائه ولذاته ثم كل ما نطالبه بثنايا سطوره من الهواجس، قرائن لا تخطئ فيها الدلالة الجازمة على اختلال الأعصاب بل لا تخطئ فيها الدلالة على الاختلال والشذوذ.[4]

إن العقاد صاغ أحكامه حول شخصية إبن الرومي النفسية من خلال شعره فيقول واصفا إياه"يحتضر الخوف ويكرر التوجس ويختلق الأوهام" [5] وهذا ما يؤكد في نظر العقاد أن ابن الرومي كان لديه استعداد للقلق، والاكتئاب فالقلق يشل من الحركة ويبطئ التفكير، ومن أهم العوامل النفسية التي تحدث هذا المرض : الاضطرابات والصدمات النفسية التي يعيشها المريض، منذ الطفولة وعلاقته بالمجتمع الذي يعيش فيه وصعوبة التوافق والتكيف إلى الإحباط الموصول، والشعور بنقص المكانة الاجتماعية، وفقدان عزيز وهذا ما ينطبق على شاعرنا لان هذه الأسباب كلها قد اجتمعت فيه فقد أمه، والده، ثم الزوجة وابنه الأوسط، وهذه النكبات أثرت فيه تأثيرا واضحا، بالإضافة إلى ذلك فان هذه العوامل السابقة قد ولدت لديه روح الاغتراب عن المجتمع، ومحاولة الانعزال عنه ((لأنه ولد مقضيا عليه بالفشل، وعاش في زمن لا رحمة فيه كمثله، ووجب أن يترك لقضائه أن يصنع ما لا حيلة في دفعه)) [6].

إن الشاعر قد أتعبه السفر في طلب الغنى، ومل من الحياة التي يشقى فيه الإنسان بدون فائدة ترجى من ذلك، فما جدوى التعب واللهاث وراء المال، وفي نهاية المطاف مآله إلى الموت، الذي لابد منه مهما حاول الإنسان الهروب منه.

أذاقتني الأسفار ما كره الغنى آغوتني برفض المطالـــــــب [7]

يصور هذا البيت مبلغ ما يعانيه الشاعر منس خط على هذا الوجود الذي يؤدي الى تدمير ذاته وتكبيله، ومن ثم زهده في طلب الغنى.

وكلمة الغنى تدل دلالة واضحة على الرفاهية، وما يرتب عنها من أدوار الزينة والفتنة واللهو والمرح فهو بهذا أراد الابتعاد عن مغامرة الأسفار في هذا الطلب السخيف، ورضي بقدره ومن ثم دخل في الاغتراب والشجون، مستأثرا بهمومه التي تلاحقه في كل مكان موقعا على قيثارة غربته النفسية لحنا مبتعدا عن الأسفار التي لا تجلب له إلا الهموم وهذا بحكم التعب والمغامرة التي قد تكون فاشلة في اكثر الأحيان، وهذا ما يؤكده البيت التالي:

فاصبحت في الأثرياء أزهد زاهد وان كنت في الإثراء أرغب راغب[8]

إذا تأملنا هذا البيت يظهر لنا الشاعر قد زهد في طلب المال والغنى، لأن هذا لا يجلب له إلا الشقاء والتعاسة والتفكير المستمر في الطرق والوسائل التي يمكن بها جلب المال.

فالشاعر قد قام بأسفاره عديدة، ووقف على أبواب الحكام حتى ينال عطاياهم، ولكن هذا السفر لم يجلب له في النهاية إلا الحزن والبؤس.

الإحساس بالقلق واليأس

أخاف على نفسي وأرجو منازها وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ومن أين والغايات بعد المذاهب[9]
ومن نكبة لاقيتها بعد نكبة رهبت اعتساف الأرض ذات المناكب

إن هذه المخاوف التي يعاني منها الشاعر تطرح لديه إحساسا شديدا باللاأمن، وهذا ما جعله يرجع إلى نفسه، فيؤكد أن الله هو الذي يعرف مصير الشاعر، ولا أحد غيره إنه فعلا إحساس باللاأمن من هذا الوجود ، فالإنسان بطبيعته عندما تنتابه لحظات يأس وقنوط ويحس باغتراب داخلي، يهز كيانه القلق في هذه اللحظة لم يجد إلا حلا واحدا وهو الرجوع إلى الله، وهنا تكتسي شخصية الشاعر طابقا متميزا يجعلها تدخل في إيمان صادق يشبه إلى حد بعيد إيمان الصوفيين فتظهر لنا بواعث الحزن، والكآبة التي غلبت على نفسية شاعرنا.

وهكذا نستطيع أن نلاحظ ملاحظة واضحة ظاهرة التشاؤم التي يتسم بها كل ذي حس مرهف، ومنه شاعرنا الذي أبتلي بكل المصائب والنكبات التي أثقلت كاهله، وجعلته ينوء تحت حملها حتى أصبح يتساءل تساؤلا فلسفيا:

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ومن أين والغايات بعد المذاهب[10]

إنه فعلا تساؤلا فلسفيا عن وجود الإنسان وغايته التي يطمح إليها، إن هذا الإنسان هو عبرة للعبر،وحيرة الحير، بحيث لا يعرف لأهدافه ولا غايته، ولا يعرف مصيره ولا ما يخبئ له القدر المحتوم.

فالشعر حائر لا يهتدي، وهذه الحيرة ناتجة عن التفكير في المصير، في أحوال نفسه، تنازعه رغبات مختلفة. تسمو به إلى العلا، وحيرة تكاد تضنيه فلا يجد لها حلا إلا بتوكيل أمره إلى الله. إنها أسئلة فلسفية يبحث الشاعر من خلالها عن وجوده عبر رؤية ميتا فيزيقية. أصبح الاغتراب الإطار الجوهري لها.

الإحالات

1. إبن الرومي : الديوان، دار الكتاب العربي، بيروت ص33، - 34

الديوان، ص33

الدكتور علي شلق: إبن الرومي في الصورة والوجود ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر للتوزيع، ص62

العقاد عباس محمود : إبن الرومي حياته من شعره، دار الكتاب العربي، القاهرة ط5 1963 ص132

نفس المصدر ص133

العقاد : إبن الرومي حياته من شعره، ص204

الديوان، ص33

الديوان، ص34

الديوان، ص34

الديوان، ص34